جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

الظاهرة الشعرية في موريتانيا
(السياق و النشأة)

إعداد

د/الشيخ أحمد البار

أستاذ الأدب المساعد بجامعة حائل

(العدد الخامس والثلاثون)
(الإصدار الثاني .. أكتوبر)
(١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م)

علمية- محكمة- نصف سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

الظاهرة الشعرية في موريتانيا (السياق و النشأة)

الشيخ أحمد البار

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والفنون، جامعة حائل، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني: ahmed.albaz99@gmail.com

الملخص:

يقوم هذا البحث على فكرة مؤداها أن إشكال نشأة الشعر الفصيح في موريتانيا يعتبر بحكم ما أثير حوله إشكالا خصبا ما يزال بحاجة لمزيد البحث والتروي من أجل الوقوف ما أمكن على أفضل التفسيرات لنشأة الظاهرة الشعرية في موريتانيا، ويتخذ هذا البحث من المنهجين التاريخي والاستقرائي أداتين لمعالجة الموضوع، وقد استطاع البحث من خلال ضرب مختلف الأقوال المتضاربة حول النشأة بعضها ببعض أن يؤسس لإجابة حاولت أن تكون شمولية خالية من شوائب التحيز المعرفي، لأن الحديث عن نشأة الشعر الموريتاني والسياقات المحتضنة له حديث لا يخلو من مغامرة معرفية؛ نظرا لارتباطه العضوي بالتاريخ الثقافي للمجتمع الموريتاني، إذ من المعلوم أن التاريخ الثقافي في هذا المجتمع أشبه ما يكون بحقل مليء بالألغام، لا يجرؤ على اقتحامه إلا اثنان: مغامر أو خبير بنزع الألغام، قد انعكست هذه الحساسية في أن أغلب الدراسات المنجرة عن هذا الأدب عموما، وإشكال النشأة الشعرية منه بشكل أخص، إذا ما استثنينا بعض الدراسات الرائدة لا تتعدى صنفين هما: صنف من الدراسات التي أنجزها نفر من الوطنيين الذين تناولوا إشكال النشأة ووعيهم الفكري لا يخول لهم تجاوز الانتماء الضيق لثنائية القبيلة والجهة والتعصب لهما، بعيدا عن رحاب الموضوعية، فدرسوا هذا الأدب في غياب كامل من المنهجية والحس النقدي الواعي، أما الصنف الثاني من هذه الدراسات ذات النفس التحيزي،

فيتمثل في بعض الدراسات التي أنجزها نفر من الأجانب: الفرنسيين خاصة الذين عنوا أساسا بالجانب الإخباري من أدب القوم، فاتخذوه سبيلا ومعينا في افتراضاتهم وبحوثهم التاريخية، خدمة لأغراض إيديولوجية: استعمارية سعيا منهم لخلق تعارض وهمي بين الثقافة العربية: الوافدة والثقافة الصنهاجية: الأصلية، لتصبح الفرنكوفونية البديل المتاح.

كلمات مفتاحية: موريتانيا، السياق، النشاة، الشعر، الظاهرة الشعرية.

The Poetic Phenomenon in Mauritania (Context and Origin)

Sheikh Ahmed Al-Bar
Department of Arabic Language and Literature, College of Letters and Arts, University of Hail, Kingdom of Saudi Arabia.
Email: ahmed.albaz99@gmail.com

Abstract:
This research is based on the idea that the problem of the emergence of eloquent poetry in Mauritania is considered, by virtue of what was raised about it, a fertile problem that still needs further research and deliberation in order to identify as possible the best explanations for the emergence of the poetic phenomenon in Mauritania, and this research takes from the historical and inductive approaches. Two tools to address the subject, and the research was able, by multiplying the various conflicting sayings about the emergence of each other, to establish an answer that tried to be comprehensive and free from impurities of cognitive bias, because the talk about the emergence of Mauritanian poetry and its embracing contexts is not without an epistemological adventure; Due to its organic connection with the cultural history of the Mauritanian society, as it is known that the cultural history in this society is like a field full of mines, only two dare to break into it: an adventurer or an expert in demining. This sensitivity was reflected in that most of the studies conducted on this literature in general And the problem of poetic upbringing in particular, if we exclude some of the pioneering studies, which do not exceed two categories: a class of studies carried out by a group of patriots who dealt with the problem of upbringing and their intellectual awareness that does not allow them to transcend the narrow affiliation of the tribe and the region

and their fanaticism, far from the scope of objectivity, They studied this literature in a complete absence of methodology and a conscious critical sense. As for the second category of these biased studies, it is represented in some studies that were carried out by a group of foreigners: the French in particular, who were mainly concerned with the news side of the literature of the people, so they took it as a specific way in their assumptions and historical research. , Serving for ideological purposes: colonialism, in an effort to create an imaginary opposition between the Arab culture: the immigrant and the Sinhalese culture: the original, to become the Francophone alternative available.

Keywords: Mauritania, Context, Upbringing, Poetry, Poetic Phenomenon.

يحتاج الحديث عن نشأة الشعر الموريتاني الانطلاق من فكرة مؤداها : أن البحث في الأوليات بحث غير مخصب منهجيا ، نظرا لارتباطه بالذاكرة التاريخية والثقافية للمجتمع مما يجعل أسهم الموضوعية حينئذ تكاد تكون منخفضة ما لم يدخل الباحث في حساباته المنهجية ضرورة فرض مسافة ما بين الذات والموضوع ، وفي ضوء هذا يمكن تقسيم الدراسات المنجزة عن إشكال النشأة إلى صنفين :

أ- صنف من الدراسات[1] يسعى أصحابه لتقرير مسلمة تاريخية لا يرون أنها مما يحتمل النقاش والأخذ ، وهي أن البداية الفعلية للشعر الموريتاني مسألة محسومة تاريخيا ، تبدأ مع بداية القرن الهجري الثاني عشر ، على يد شعراء محددين بالاسم ، وبغض النظر عن مدى وجاهة هذا الرأي من عدمها – فما زالت لنا معه وقفة نقاش وتأمل – فإن القائلين به هم الغالبية الساحقة من دارسي الأدب الموريتاني ، وهذا غير مستغرب إذا علمنا أن هذا الرأي يمثل خلاصة ما ذهب إليه اثنان من أكبر أعلام الأدب الموريتاني هما الدكتوران : محمد المحتار اباه واحمد بن الحسن .

ب- أما الصنف الثاني من هذه الدراسات فيرى أصحابه أن التاريخ الفعلي لنشأة الشعر في موريتانيا افتراضي ، ليس بالإمكان الجزم به ، وهم بهذا يتبنون رأيا معاكسا للفريق السابق السابق ، ويمثل هذا الفريق الأستاذ عبد الله ولد ابن حميدة الذي يعد أول من خصص كتابا مسقلا لتناول إشكال النشأة كانت المراهقة المنهجية لم تسمح لنا بأن نتبنى موقفا محددا من الفريقين خلال معالجتنا لهذا الإشكال في الأطروحة

١ محمد سعيد محمد محمود، ديوان ابن رازكة، مرققون بالمدرسة العليا للأساتذة ص ٢٤

فإننا اليوم ستكزن لنا كلمة سيجدها القارئ هنا بعد أن نستعرض أقوال وحجج الفريقين وبناء على هذا التصنيف يمكننا أن نتناول الموضوع من خلال التناول المنهجي التالي :

المبحث الأول: محددات السياق ، وفيه مطلبان:

المطلب الأول : السمات السياسية والثقافية للمجتمع خلال عصر النشأة.

المطلب الثاني : السياق المعرفي والنقدي لتناول إشكال النشأة.

المبحث الثاني : نشأة الشعر في موريتانيا وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: رؤية دكتور محمد المختار اباه للنشأة.

المطلب الثاني : رؤية الأستاذ عبد الله ابن حميدة للنشأة.

المطلب الثالث : رؤية دكتور أحمد الحسن للنشأة.

الخاتمة.

قائمة المصادر والمراجع

المبحث الأول: محددات السياق، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: السمات السياسية والثقافية للمجتمع خلال عصر النشأة.

المطلب الثاني: السياق المعرفي والنقدي لتناول إشكال النشأة.

المطلب الأول : السمات السياسية والثقافية للمجتمع خلال عصر النشأة

تميز عصر النشأة بالسمات السياسية والثقافية التالية :

١ – الطابع الصحراوي البدوي: فقد أدى غياب السلطة السياسية بعد دولة المرابطين إلى حدوث فراغ سياسي ، هذه السمة في غياب الإطار السياسي ممثلا في السلطة المركزية، إذ لم تعرف البلاد إطارا سياسيا، يلم شتاتها بعد سقوط دولة المرابطين، لم تكن البلاد الموريتانية صحراوية منذ القدم، فالآثار المنقوشة على صخورها والّتي تبدو فيها أشكال مختلفة من الأدوات الّتي استعملها الإنسان القديم تؤكد أنّ البلاد كانت غنية بالمياه وتتساقط فيها الأمطار وأنهار جفت بمرور الزمن للتغيرات المناخية فهجر الإنسان نحو الشرق او المناطق الجنوبية، وكان الإنسان في العصر الحجري الحديث يعتمد على الزّراعة في تلك المنطقة. وقد أجريت بحوث في منطقة "دارتشت" في جنوب موريتانيا قد كشفت وجود ٠٨ مراحل مؤرخة جيدا من العصر الحجري الحديث. وقد بلغ الإعمار البشري لما يعرف الآن بموريتانيا أوجّه قبل ٣٠٠٠ سنة ومنذ ذلك الوقت أصبح الإنسان مندمجا في توازن بيئي، وفي تلك الفترة أصبح المزارعون يتراجعون نحو الجنوب وأصحاب المواشي أقلعوا عن عادة الإستقرار وأصبحوا يتبعون قطعانهم من مرعى لآخر، منذ تحوّلت الصحراء إلى أرض جرداء.

٢ – الطابع القبلي: مع مرور الوقت بدأت تتوافد على موريتانيا جماعات من القبائل أبرزها "الطوارق"، وعند انتشار المسيحية في غرب إفريقيا كانت هذه القبائل قد اختلطت بالسّكان الأصليين، وكانت تعتمد في عيشها على التجارة مع الشّعوب المجاورة وعلى ما تنتجه الأرض من حبوب في الواحات، في القرن ٣م توجهت القبائل من إفريقيا الشمالية وتوجهت نحو الغرب وبدأت احتلال الصحراء من الشمال، مع أنّ بدايات هذه الهجرة كانت موغلة في البلاد قبل الميلاد كما ذكرنا سابقا،

وقد دفع هؤلاء أمامهم مجموعات أخرى لها صلة قربى مع أهل العصر الحجري الحديث ، وهناك قبائل أخرى يطلق عليها اسم "البافور" هم من أسلاف صنهاجة. وصف الغرمانتيون أنفسهم بأنهم سود نوعا ما، ويوصفون أنّهم قليلو السواد حسب "بطليموس"، وفي القرن ٥م سمع "هيرودوت" عن مجموعتين قبليتين هما "الغرمانتيون" و"الناسامونيون" وعن طريق هؤلاء الغرمانتيون حصل الرومان على معلومات عن مراكز داخل إفريقيا في القرون التالية ومن هذه المراكز موريتانيا، استطاعت "جدالة" في الجنوب الغربي من البلاد أن تسيطر على مناطق تحتلها قبائل "البافور" ، ولمّا فرضت القبائل الصّنهاجية البربرية سيطرتها على مملكة اودغست الزنجية في جنوب موريتانيا بداية القرن ٩م كان لملوكها وشعوبها البربر بعد دخولهم للإسلام أثر كبير في نشر الإسلام نحو الجنوب والشرق حيث لم يكن قبل ذلك قد تخطّى مناطق وسط موريتانيا إلاّ بصورة جزئية على يد التّجّار وبعض الدّعاة.

٣ – العطاء المعرفي الذي ظهر في كثرة العلماء وحركة التأليف وما صاحبها من بواكير ازدهار أدبي ، كان القرن الثالث عشر أكبر مثال عليها فقد تجلت في العطاء المعرفي الغزير ويرى بعض الباحثين في السمات السابقة مظهرا لا يخلو من مفارقة تاريخية[١].

١ – أحمد جمال الحسن أدب الجهاد في موريتانيا محاضرة مرئية موجودة بأرشيف الجمعية الثقافية الإسلامية بنواكشوط.

المطلب الثاني : السياق المعرفي والنقدي لتناول إشكال النشأة.

ونحن في مقاربتنا ورصدنا لأهم السياقات التي نشأت الظاهرة الشعرية في كنفها وطبيعة نشأتها، ومراحل وتطورها مضطرون لأن نعتمد على جملة من الآراء والافتراضات، التي نرجو ألا يكون تعاملنا معها تعامل المبتدئ: المتمذهب، بل إننا سنورد بأسلوب خاص، يتحفظ على بعض منطلقاتها ويناقش مسلماتها، ولعل أكثر هذه الآراء جدية وجرأة يتمثل في دراسات ثلاثة تعتبر الأقانيم المشكلة لجغرافيا الكتابة التاريخية في موريتانيا: في شقها الأدبي.

المبحث الثاني : نشأة الشعر في موريتانيا وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : رؤية دكتور محمد المختار اباه للنشأة.

المطلب الثاني : رؤية الأستاذ عبد الله ابن حميدة للنشأة.

المطلب الثالث : رؤية دكتور أحمد الحسن للنشأة.

المطلب الأول: رؤية دكتور محمد المختار اباه للنشأة.

يسمح لنا الرصد التاريخي بالقول: إن أولى هذه الدراسات التي سنقف عند كل واحد منها على حدة ظهورا: كتاب: (الشعر و الشعراء في موريتانيا) لمؤلفه الدكتور محمد المختار بن باه، والكتاب في أصله: أطروحة لنيل الدكتوراه، قدمت لجامعة السوربون في فرنسا، خلال سبعينات القرن الماضي، ومثلت محاولة جادة لتقديم إطار تاريخي عن الظاهرة الشعرية في موريتانيا: نشأة وسياقا، وخصوصيات، حيث انطلق صاحبها من مسلمة قابلة للنقاش مفادها: أن الشعر باعتباره مظهرا من مظاهر الثقافة العالمة، فإن ظهوره نتيجة حتمية لمسار تاريخي، يبدأ بظهور الإسلام مرورا بظاهرة التعرب التي أدت للتعرف على أمهات الكتب الأدبية، مما أسهم في بلورة إحساس جمالي عند الطبقة المثقفة من المجتمع، الأمر الذي خول لهم قرض الشعر وتعاطيه، ويرجع صاحبنا الإرهاصات الأولى للمد الشعري في هذا البلاد إلى القرن الحادي عشر للهجرة، إذ يقول ما نصه: (ففي أواسط القرن الحادي عشر للهجرة، تفجرت نهضة شعرية: عارمة لمع من بين قادتها المرموقين: سيدي عبد الله ابن محمد العلوي المعروف بابن رازكة والذئب الحسني، وأبو فمين المجلسي وغيرهم، فقد كان شعرهم متكامل الصورة[١])، غير أن صاحبنا قد استشعر ثقل الحسم التاريخي الذي يقدمه دون مستند، فعقب عليه بالتساؤل قائلا: (فهل كان قبل هؤلاء الشعراء من سبقهم إلى نسج القريض)؟ لكن صاحبنا يرد بالقطع النافي لوجود أي أثر شعري قبل جيل ابن رازكة، مؤكدا بصيغة جازمة فيها بعض التسرع أن الآراء تختلف في الإجابة على هذا التساؤل، وأن المصادر

١ – الدكتور محمد المختار ولد أباه، الشعر و الشعراء في موريتانيا، منشورات دار الأمان الرباط، طبعة ٢، ٢٠٠٣ ص٣٠، ٣٧، ٣٨

التاريخية لا تسعف بالجواب الصحيح القاطع، غير أن من يفترض أن هؤلاء الشعراء هم أول من نبغ في الشعر في ربوع موريتانيا اعتمدوا على متكئ منطقي مفاده: أنه لو كان هناك شعر قبل جيل ابن رازكة لوصلنا، كما وصلتنا أشعارهم، أما الافتراض القائل بوجود آثار شعرية قبل هذا الجيل، وأنها ضاعت نتيجة الحروب والاضطراب السياسي، فقد تنكبه صاحبنا.

المطلب الثاني: رؤية الأستاذ عبد الله ابن حميدة للنشأة.

وإذا كنا قد فصلنا القول فيما يقدمه كتاب الشعر والشعراء من آراء وافتراضات حول إشكالية النشأة، فيحق لنا أن نقف مع مؤلف آخر حاول صاحبه أن يقدم تصورا مغايرا عن هذه الإشكالية، ويتمثل هذا المؤلف في كتاب: (الشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط: مبحث في النشأة، والأصول) والكتاب عبارة عن رسالة ماجستير قدمت لكلية دار العلوم بجامعة القاهرة سنة ١٩٨٢م للأستاذ عبد الله ولد ابن حميدة، وقد استطاع هذا الباحث أن يقدم رؤيته لإشكال نشأة الشعر في موريتانيا بطريقة أصلية: ذات نفس سجالي، لا يخلو من عنف منهجي، ومفاد هذه الرؤية: أن نشأة الشعر في موريتانيا ليست حدثا عرضيا أو ظاهرة صدفية، بل كانت نتيجة لجملة من العوامل، وتتويجا لمسار تاريخي يبدأ من دخول الإسلام لهذا القطر الذي يرجح صاحبنا أنه قد تم خلال القرن الهجري الثاني على يد عقبة بن نافع الفهري، ومرورا بعصر المرابطين: (مرحلة تعميم الإسلام ما بين القرن٢إلى ٨هـ)، وانتهاء بمرحلة التعرب التي كانت نتاجا حتميا لاحتكاك قبائل صنهاجة (السكان الأصليون)، بالقبائل العربية، النازحة: (قبائل بني حسان)، الأمر الذي ساهم في تعرب القبائل الصنهاجية بصورة اختيارية، كما يفترض الباحث ولد ابن حميدة أن للصوفية بمختلف طرقها دورا بارزا في مسار التعرب، ونشر الثقافة العربية والتي بانتشارها يمكن الحديث عن وجود إرهاصات شعرية، كما يرى أن انتشار اللغة العربية وثقافتها قد تمت على مرحلتين هما:

١ – مرحلة الاحتكاك[١]: وتبدأ من مطلع القرن الهجري الثاني: تاريخ وفود القبائل العربية، وتنتهي بتأسيس الإمارات الحسانية في القرن الحادي عشر، وقد تميزت هذه المرحلة بدخول ظاهرة التعرب طورها الريادي، حيث إن هذا التعرب كان على مستويين، أحدمها تعرب رسمي: تمثل في وجود ثقافة عالمة، تخول لأصحابها القدرة على القراءة والكتابة، والمشاركة المحدودة في الفعل الثقافي، وهذا الصنف من التعرب يرتد إلى القبائل الصنهاجية، إذ لا دخل فيه لقوة قاهرة، أما النمط الثاني من التعرب، فهو تعرب شعبي: الفاعلية فيه أساسا تعود للقبائل المعقلية: العربية الوافدة فهو مواكب في ظهوره للسيطرة السياسية لقبائل بني حسان الناطقة بالعربية.

٢ – مرحلة الكمون والاستيعاب: وتمتد هذه المرحلة من القرن الهجري التاسع وحتى منتصف القرن الثاني عشر، وتتجلى في قدرة الطبقة العالمة من المجتمع: (الزوايا) أن تستخلص لباب ما تقرأ، بل وتعيد تمثله: فتسوغه تلخيصا ومختصرا، أو حواشي، وهو ما يعني أن هذه الفترة مثلت مرحلة القدرة على التأليف والكتابة الأدبية، فظهرت بعض المؤلفات خلال هذه المرحلة، التي هيمنت عليها صبغة المران والتدرب، ليبدأ التأليف الفعلي بكتاب عبد ربه ابن سيد أحمد المحجوبي: وهو شرح للأجرومية في النحو، يفترض أنه كتب في القرن التاسع للهجرة، وفي خضم هذا الوعي الثقافي يمكن الحديث عن وجود إرهاصات شعرية، مع أن صاحبنا ينطلق من رؤية منهجية: ذات نفس جدلي، تشكك في كل الافتراضات التي تعطي تاريخا محددا لنشأة

١ – الشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط، مرجع سابق، ص ٤٦ – ٥٩ ، والنص الغائب في الشعر الموريتاني ، د الشيخ البار ، ص ص ١٠ ، ١١

الشعر في موريتانيا، بدءا بالتحديد السابق الذي يقدمه ولد أباه القائل: بأن البداية الفعلية للشعر الفصيح كانت في القرن الحادي عشر على يد ابن رازكة، وهو ما يعترض عليه ولد بن حميدة مشككا في الدعامات التي يستند عليها ابن أباه، ممثلة في الرواية الشفوية والمخطوطات المتوفرة عن تلك الفترة، فهاتان الدعامتان لا تمنحان الحصانة المعرفية لإعطاء الريادة الشعرية لابن رازكة، فما دام أن مصادر الشعر الموريتاني المتوفرة آنذاك تفتقد للقيمة التاريخية، وما دمنا لا نمتلك الدليل القطعي، أو الحجة الملزمة، فليتقبل منا أن نصوغ أحكامنا حول إشكال النشأة بطريقة ظنية، وفي صيغ ترجيحية: غالبة، ويفترض صاحبنا أن هناك مراحل جنينية في مسار الظاهرة الشعرية غائبة عن وعي الباحثين في الشعر الموريتاني، وهو ما قادهم للاستعجال والقول بريادة ابن رازكة، معتبرا أن أصحاب مقولة: ريادة ابن رازكة، يمكن تصنيفهم لمجموعات ثلاثة متفاوتة في درجة المسؤولية المنهجية المترتبة على ما سماها: (المصادرة)، وهذه المجموعات يجملها ولد ابن حميدة فيما يلي:

أ – الفئة الأولى[1]: ويقصد بها صاحبنا جمهرة المبتدئين وأنصافهم ممن تربطهم بالأدب صلات واهية، وهؤلاء دورهم لا يعدو ترديد الشائع من الآراء، فهم رجع صدى، وهؤلاء لا يستحقون التوقف عند آرائهم حول النشأة، لأن الحكم غير صادر عنهم، فلا تقع عليهم مسؤوليته.

ب – الفئة الثانية: ومدارها المتأدبون: أهل الرواية، والعناية، وهذه الفئة ضالعة في ترسيخ المصادرة النافية لوجود الشعر قبل جيل ابن رازكة،

١ – الشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط، مرجع سابق، ص ١٣٨ ، والنص الغائب ص ١١ ، ١٢

ويمثل ولد ابن حميدة لأصحاب هذه الفئة بصاحب كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط: أحمد بن الأمين العلوي، مشنعا عليه كونه افتتح كتابه الوسيط بشعراء قبيلته، مرسخا بذلك المقولة الشائعة، القائلة: بأن الشعر في موريتانيا قبلي النشأة: (أي أنه نشأ في الجانب الغربي، الجنوبي من البلاد)، علوي المنبت: (أي أنه ظهر على يد شعراء قبيلة إد وعلي)، وهذا ما ينفيه صاحبنا بطريقة لا تخلو من بعض التحامل.

ج – الفئة الثالثة: وهي فئة تبنت المصادرة السابقة، ويمثلها مجموعة من الدارسين الباحثين الذين ألزمهم أدبيا دخولهم إلى ميدان البحث العلمي حدا أدنى من التحقق، والموضوعية يحول بينهم وبين إلقاء الأحكام على عواهنها، ويمثل صاحبنا لأصحاب هذه الفئة بالدكتور محمد المختار بن أباه، حيث يرى ولد ابن حميدة أن الدكتور ابن باه لم يكلف نفسه عناء التدقيق في إشكال النشأة، فتعرض له في سبعة وثلاثين سطرا من كتابه الشعر والشعراء، معتبرا أن الشعر ظهر في نضج فجائي على يد ابن عمه ابن رازكة العلوي، وهذا الحرج المنهجي هو ما وقع فيه محمد سعيد بن محمد محمود، محقق ديوان ابن رازكة، إذ يقول في مقدمة الديوان: "أريد قبل أن أدخل في الموضوع أن أنبه إلى أن ابن رازكة هو أول شاعر عرف في هذه البلاد بالمعنى المتعارف عليه للشعر[١]".

وبعد أن أنهى صاحبنا سجاله مع دعاة المصادرة، وأوضح بما فيه الكفاية ما يحيط بمبحث النشأة من مزالق منهجية، ها هو ولد بن حميدة يقدم لنا تصوره الخاص عن نشأة الشعر في موريتانيا، معتمدا في ذلك على

١ – محمد سعيد محمد محمود، ديوان ابن رازكة، مرققون بالمدرسة العليا للأساتذة ص ٢٤

تحديد مفهوم النشأة، وشروطها كأدوات لا غنى عنها قبل إعطاء تحديد فعلي لانطلاقتها، مؤكدا أنه يقصد بالنشأة ظهور آثار للشعر يافعة[1] غضة، وتدرجها في أطوار متراتبة، حتى استكملت الهام من خصائصها الفنية فصلب عودها، وفارقت لغتها الاعتيادية إلى لغة تتوخى بلوغ الجمال وإثارة الإحساس لدى المتلقي، ويعقب صاحبنا على هذا التحديد المفاهيمي قائلا: "ومن البديهي أن مفهوما كهذا يأبى للنشأة أن تكون ظاهرة فردية: تقوم على رصد شعر شاعر بعينه، مهما امتاز وتفرد، وطغت شخصيته"، ويقدم صاحبنا البديل المنهجي المتمثل: في أن الأصح أن نعتبر الشعر ظاهرة تاريخية عامة، ترتبط في ظهورها بالطور الثقافي للجماعة، فلا تتخلق جزافا، وإنما هي استجابة لواقع تاريخي محدد: ذي حاجات نفعية، أو جمالية محددة، وفي خضم نفي صاحبنا وتشكيكه في الطرح القائل بريادة جيل ابن رازكة، نظرا لما في قولهم وافتراضهم الذي قد لا يخلو من جزم لا تسوغه الأعراف المنهجية من إغفال تام للبعد التراكمي الضروري في أي ظاهرة شعرية، يراد دراسة نشأتها، ويتساءل ولد ابن حميدة قائلا: "فهل يصح عقلا أن شعر ابن رازكة المدرج بين دفتي ديوانه والذي لا يشكو من فسولة، أو ضعف والمكتوب بلغة جزلة منتقاة متماسكة البناء أن يكون باكورة الشعر في موريتانيا؟، وهل يصح في الأفهام أن تكون النشأة الأولى على هذا النحو من القوة والسواء؟ وهل من المتأتي ذهنا أن تأتي النشأة من فراغ غير مسبوقة بتجارب أظهر تعثرا، وأقل نضجا؟"، ثم يردف صاحبنا بعد كل هذه التساؤلات "قائلا": "الواقع أننا مهما أطلقنا للخيال من عنان وجعلنا للأهواء من سبيل، ووفقا لسالف ظروف تاريخ القوم، وللماثل من المعطيات فإننا

١ – ينظر ولد ابن حميدة، الشعر العربي الفصيح، مرجع سابق من ص ١٤٣ – وحتى ١٤٦

نميل إلى افتراض حلقة مفقودة من شعر القوم، فهل من آثار لها باقية، تعزز ما ملنا إليه".

المطلب الثالث : رؤية دكتور أحمد الحسن للنشأة.

وتقوم رؤيته التي يمثلها كتابه : الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر على المسلمات التالية :

١- أن نشأة الشعر فرع عن نشأة الثقافة العالمة ، ولذلك اهتم بدراسة السياقين الثقافي والاجتماعي

٢- أن رؤيته لشأة الشعر في موريتانيا تكاد تتفق مع ما ذهب إليه ابن اباه في الشعر والشعراء ، فهما متفقان في المضمون وإن اختلفا في الأسلوب

٣- أنه يرى أن بوادر الشعر الموريتاني بمقوماته الفنية، والنقدية لم يبدأ إلا في القرن الهجري الحادي عشر، إذ يقول: "إلا أن أقدم المحاولات التي تنطبق عليها مقاييس الشعر النقدية انطباقا تاما وتصدر من رجال ينظر إليهم معاصروهم ومن بعدهم على أنهم الشعراء حقا[١]" يعني ابن رازكة المتوفى ١١٤٣ للهجرة.

٤- أنه يربط بين فهم الظاهرة الشعرية في موريتانيانشأة وسياقا بمعرفة السياقات التي أنتجتها والتي أجملها فيما يلي :

١.مرحلة ما قبل الإسلام:

يرى الباحث أن الدراسات المحققة عن تلك الفترة تجمع على أن المنطقة المعروفة قديما بأرض شنقيط كانت آهلة بالسكان منذ العصر الحجري، وأن مناخها، مقارنة بما سيؤول إليه، كان رطبا ممطرا مما يؤكد أنها قد عرفت حضارات متعددة، وتجمعات سكنية مختلفة، إحداهما تتمثل في مجموعة من البيض القادمين من شمال إفريقيا، بينما المجموعة الأخرى تتجلى

١ – أحمد ابن الحسن، الشعر الشنقيطي، مرجع سابق، ص٨١

في مجموعة من السود يعود أصلهم إلى المنطقة المدارية، وهكذا ظلت الصحراء الموريتانية كانت عامرة بالبربر، وهم السكان الأصليون، الذين كانوا بمنأى عن الغزوات المسيحية، مما يرشح الوثنية لأن تكون الديانة السائدة.[1]

٢. مرحلة ما بعد الإسلام:

تعود المحاولات الأولى لنشر الإسلام في هذه البلاد إلى عقبة ابن نافع الفهري، المتوفى سنة٦٣ للهجرة، بل إن صاحبنا يجزم بأن الإسلام قد وفد إلى هذه الأرض، خلال القرن الهجري الثاني، ليتعزز لاحقا مع حركة المرابطين، التي بقيامها ترسخ الإسلام بشكل فعلي قائم على أسس معرفية وعقائدية.

٣. مرحلة ما بعد المرابطين:

يرى ابن الحسن أنه: بالرغم مما سماه الفراغ الوثائقي في المصادر الموثقة لهذه الفترة، يمكن القول إنه حدث احتكاك ثقافي خلال فترة المرابطين بين القبائل الصنهاجية مع الرافدين المغربي والأندلسي، مما ساهم في نشر الثقافة العربية.

٤. مرحلة العصر الحساني:

وتمثل هذه الفترة مربط الفرس داخل كل هذه الحقب التاريخية: وفيها بدأت بواكير التعرب وإرهاصات القول الشعري، ويبتدئ هذا العصر تاريخيا بدخول قبائل بني حسان: العربية إلى الصحراء الموريتانية، وسيطرتهم العسكرية السياسية عليها، وهو حدث يراه ابن الحسن تحولا جذريا في تاريخ المنطقة، يتجلى في مظهرين حاسمين هما:

أ – إقامة نظام سياسي، واجتماعي متميز: عرف بالنموذج الحساني.

---

١ – أحمد جمال ابن الحسن: الشعر الشنقيطي في القانون الثالث عشر: مساهمة في وصف الأساليب منشورات جمعية الدعوة الإسلامية في طرابلس ليبيا من ص ٣٧وحتى ٦٢

ب – تعرب المنطقة تعربا: متدرجا لا رجعة فيه.

وقد تميز المجتمع الشنقيطي خلال العصر الحساني بمجموعه من السمات السياسية والثقافية والأدبية ساهمت في ظهور الشعر الشنقيطي، وهو ما يغرينا بالتوقف عند هذه السمات وهذه السمات يجملها ابن الحسن فيما يلي:

١ – التقسيم الفئوي: حيث إن السمة البارزة الجوهرية في المجتمع كونه مجتمع فئات، وطبقات تراتبية، ينقسم الناس بموجبها إلى زوايا: يرتكز نشاطهم في المجال العلمي، والمشاغل الدينية، فهي الفئة التي تحترف الثقافة العالمة، وتلتزم بتعاليم الإسلام في أدق تفاصيلها، ومجموعة حسان: وهي الفئة المحاربة: التي يرتكز نشاطها على الجوانب العسكرية والسياسية، وتمثل هذه الطبقة والتي قبلها الأرستقراطية بجناحيها: البيروقراطي والتكنوقراطي، كما أن هناك فئات أخرى لا تصل لهرم السلم بل يتمحور نشاطها في خدمة الفئات العليا: المذكورة آنفا.

٢ – الوضع الثقافي المتطور: يرى الباحث بناء على معلوماته البيبلوغرافية واستنادا على المتوفر من تاريخ القوم، أن العصر الحساني مثل من الناحية الثقافية قطيعة حاسمة مع ما قبله، وأنه اجتمعت فيه ظروف متعددة الأوجه أنتجت ثقافة عربية إسلامية واسعة الانتشار، ثرة العطاء، تجلت في ظهور أقدم مؤلف شنقيطي وهو كتاب مواهب الجليل على شرح مختصر خليل، لمحمد ابن أحمد الواداني المتوفى في القرن الهجري العاشر، إضافة لظاهرة التعرب التي تعنى عند ابن الحسن حلول اللغة العربية وثقافتها محل غيرها من اللغات والثقافات باستخدام العربية في مستوياتها المختلفة: فصيحة وعامية أداة تعبير عن حياة الجماعة وبتعاطي نخبة المجتمع لها في تحققاتها النخبوية العالمة، وهذا ما اصطلح عليه بن الحسن تعرب النخبة المثقفة،

ويقصد به ترسخ التقاليد المعرفية: الإسلامية بين صفوف قبائل الزوايا، وانتمائها للعروبة عقائديا، وثقافيا، ووجدانيا، وعلى أعتاب هذا الوعي الثقافي نشأت بوادر الشعر الشنقيطي وأصبح الشعر مقبولا، رائجا، رغم وجود قرائن تدل على حصول توجس لدى النخبة المثقفة من علماء الزوايا منه، إلى أن نال شرعيته في القرن الحادي عشر، وقد خاض الشعر الشنقيطي معركة وجود ومخاض ولادة، قبل أن يكتسب شرعيته الوجودية ومع أن الباحث ابن الحسن قد تحرج من تقديم تحديد زمني: قاطع لنشأة الشعر الموريتاني، مكتفيا بالتأكيد على أن معلوماته الراهنة لم تسمح له بعد بنفي الحكم الذي جزم به الدكتور محمد المختار بن أباه القائل: بريادة ابن رازكة، وهكذا فإن الباحث أحمد الحسن يرى أن بوادر الشعر الموريتاني بمقوماته الفنية، والنقدية لم يبدأ إلا في القرن الهجري الحادي عشر، إذ يقول: "إلا أن أقدم المحاولات التي تنطبق عليها مقاييس الشعر النقدية انطباقا تاما وتصدر من رجال ينظر إليهم معاصروهم ومن بعدهم على أنهم الشعراء حقا[1]" يعني ابن رازكة المتوفى ١١٤٣ للهجرة.

١ – أحمد ابن الحسن، الشعر الشنقيطي، مرجع سابق، ص٨١

الخاتمة

يمكننا الخروج من تناول إشكال نشأة الشعر في موريتانيا بالخلاصات التالية :

١ – أن هناك ثلاثة مواقف حول هذه الظاهرة ، يبدو الخلاف ضعيفا بين اثنين منها بحيث يمكن الجمع بينهما الثالث يتبنى موقفا مباينا

٢ – أن الرؤية التاريخية التي ينطلق منها أصحاب الرأي القائل بريادة ابن رازكة وطبقته من شعراء القرن الثاني عشر الهجري ترى أن الأمر مسلما لكون الشعر لم يظهر بمقوماته الفنية إلا على يد هؤلاء الشعراء، بينما يرى ولد ابن احميدة أن هذا مجرد مصادرة لا تنهض على دليل

وأخيرا فإنه الخلاف بينهما عندي يبدو خلافا اصطلاحيا فقط ، فلعل مفهوم الشعر لدى القائلين بريادة ابن رازكة منحصر في الشعر القائم على مقومات فنية وجمالية بينما مفهوم الشعر عند ولد ابن احميدة المنكر لريادة بن رازكة تعني ماهية الشعر فقط المتعلقة بالجانب الإيقاعي فقط

قائمة المصادر والمراجع :

١ – عبد الله ولد ابن حميدة الشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط: مبحث في النشأة والأصول منشورات مطبعة النصر نواكشوط، ط ١، ٢٠٠١م، ص: ١٢. أحمد جمال الحسن أدب الجهاد في موريتانيا محاضرة مرئية موجودة بأرشيف الجمعية الثقافية الإسلامية بنواكشوط الدكتور محمد المختار ولد أباه، الشعر و الشعراء في موريتانيا، منشورات دار الأمان الرباط، طبعة ٢، ٢٠٠٣ ،

٢ – محمد سعيد محمد محمود، ديوان ابن رازكة، مرققون بالمدرسة العليا للأساتذة ص

٣ – أحمد جمال ابن الحسن: الشعر الشنقيطي في القانون الثالث عشر: مساهمة في وصف الأساليب منشورات جمعية الدعوة الإسلامية في طرابلس ليبيا من ص ٣٧وحتى ٦٢.